مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

بنية المجتمع المغربي الإسلامي أثناء العصر الفاطمي (297-362هـ/ 909-972م)

الدكتورة غادة حسن*

(تاريخ الإيداع 12 / 10 / 2014. قبل للنشر في 21 / 12 / 2014)

□ ملخّص □

يهدف هذا البحث الى تبيان طبقات مجتمع المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مع دراسة و تحليل الخصائص المميزة لكل طبقة، و علاقتها بالسلطة قرباً أو بعداً، و ربط كل طبقة بالتي قبلها للوقوف عند أوجه التباين الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية : المغرب، الفاطميون، طبقات، بنية، مجتمع.

*دكتورة – قسم التاريخ– كلية الآداب– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

The structure of society in the Islamic Maghreb during the Fatimid era (297-362AH/909-972AD)

Dr. Ghada Hassan*

(Received 12 / 10 / 2014. Accepted 21 / 12 / 2014)

□ ABSTRACT □

This research aims to statement layers of society the Islamic Maghreb to the Fatimid era (the fourth century AH/tenth century AD) with the study and analysis of the characteristics of each layer, and its relationship to power closer or distant, and connect each layer with a layer which has been accepted in order to stand at the social disparities.

Key words: Maghreb, Fatimid, structure, classes, society.

* **Doctor, department of history, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

أخذ أئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثاني الهجري/العاشر الميلادي يوجهون جهودهم الى نشر دعوتهم في كثير من أرجاء العالم الإسلامي. و قد لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في بلاد المغرب، كان من ثماره خضوع كثير من مدن شمال افريقية لدعاتهم، ثم قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري/الحادي عشر ميلادي على يد الداعي أبو عبد الله الشيعي (ت. 298هـ/910م) .

ولم يكن سلطان الفاطميين موطداً في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (في عهد الخليفة عبيد الله المهدي و ابنه القائم بأمر الله)، و لذلك اتجهت جهود خلفائهم الى العمل على ضبط الأمور في تلك البلاد، وبخاصة في المغرب الأقصى، على أن ما بذلوه من جهد في هذا السبيل لم ينه الاضطراب الذي ساد المغرب، فسرعان ما قامت فيه بعض الثورات بعد انتقال الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (342-393هـ/953-975م) الى مصر في عام 363هـ/973م، مما ترتب عليه ضعف النفوذ الفاطمي في المغرب.

تبوأت الدولة الفاطمية مكانة مميزه في التاريخ العربي الإسلامي، و احتلت أهمية خاصة لدى المؤرخين قديماً وحديثاً، ولعل ذلك راجع الى أنها دولة شيعية حكمت المغرب و مصر و جزء من بلاد الشام، و ما أثاره عليها مذهبها وانتسابها الى آل البيت (عليهم السلام) من الجدل بين المؤرخين حول حقيقة نسب الفاطميين و أحقيتهم في خلافة المسلمين. بالإضافة الى ذلك فإن الدولة الفاطمية قد حظيت بثراء عريض و كانت لها نظم و رسوم تتسم بالفخامة و البذخ جذبت المؤرخين فأفاضوا في الحديث عن تلك المظاهر و الاحتفالات العظيمة.

وكان مجتمع المغرب الإسلامي في عصر الفاطميين مجتمعاً طبقياً، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها و صفاتها و مظاهرها، فضلاً عن نظرة الدولة لها و مقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات و في مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كبيراً بين الحكام و المحكومين.

أهمية البحث و أهدافه:

يهدف هذا البحث الى إعطاء صورة واضحة عن التقسيم الطبقي في المجتمع المغربي الإسلامي خلال العصر الفاطمي، موضحاً علاقة طبقاته بعضها ببعض، و أهم المظاهر و القوانين الناظمة بين طبقة رجال الحكم و رجال الدين و طبقة عامة الشعب على اختلاف فروعها و أصنافها و تسمياتها و تشعباتها، و التي من خلالها نستطيع التعرف على أهم المظاهر و الممارسات الاجتماعية التي كانت تحصل في العصر الفاطمي.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على جمع المادة العلمية من العديد من المصادر المطبوعة، وكذلك المراجع الحديثة، والمراجع الأجنبية، ومن ثم تحليلها ومقارنتها بهدف الوصول للحقائق العلمية المتعلقة بموضوع البحث ملتزماً بجميع قواعد منهجية البحث التاريخي من حيث دقة اللغة و حسن التعبير و سهولة الأسلوب.

طبقة الخلفاء و رجال الدولة :

وهي الطبقة العليا في المجتمع المغربي الإسلامي تتألف من الخلفاء، الوزراء، الولاة وغيرهم من أصحاب السلطة والنفوذ. تمتعت هذه الطبقة بمكانة سياسية و اقتصادية رفيعة لأن السلطة كانت بيدها. و على الرغم من قصر

المدة التي قضاها الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب الإسلامي (296-365هـ/909-975م)[1]، الإ أنهم أظهروا تمسكاً بمباهج الحياة و رغدها، فأقاموا القصور و الفنادق، و الحمامات، و المتنزهات، و أنفقوا بسخاءٍ على بناء حاضرةٍ لهم، و كل ذلك يقيم دليلاً على عظمتهم، و مظهراً من المظاهر ينّم عن ثروتهم. فمنذ دخول الخليفة عبيد الله المهدي بلاد افريقية أظهر للناس أنه الحاكم المطلق الذي تجب طاعته، و يهاب جانبه، إذ استهل أعماله بأخذ الاموال التي كانت بأيدي دعاته و مشايخ القبائل، و استولى عليها[2]، و يعترف القاضي النعمان قائلا: "فكانت ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة، و توهموا أنهم يكونون كما عودهم أبو عبد الله، يأمرون وينهون و يبسطون"[3].

هذا و قد ورد في بعض المصادر ما يدل على المغالاة في وصف شخص الخليفة المهدي حتى شبهته "بالشمس المنيرة"، و قد جلس في مجلسه، و أحاط نفسه بالحرس و الخدام، و حوله رجال دولته على مراتبهم، من دعاة، و قواد، و علماء، و على يمينه و شماله يقف رجلان من عبيده "و بيدهما مذبّتان"[4] و هما يذبّان على رأسه"[5]. وقد بالغ الدعاة في تعظيم و اجلال شخص الخليفة، أن كانوا إذا دخلوا عليه، قبلوا الأرض بين يديه"[6].

و من مظاهر الأبهة و العظمة، مجالس الشعر و الأدب التي كانت تعقد في قصور الخلفاء لمدحهم و تعظيم سلطانهم، فقد أغدق الفاطميون على الشعراء و الأدباء بسخاءٍ، مما جعل هؤلاء يكثرون من التردّد عليهم، و مدحهم للحصول على الهبات و الهدايا، و من بين الشعراء الذين مدحوا الخليفة المهدي، محمد البديل[7]. كما امتدح الشاعر الاندلسي الشهير ابن هانئ الاندلسي الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله فأجاد[8].

وأفسح الفاطميون مجالس أخرى للمناظرة، و شجعوا علماءهم، و علماء أهل السّنة من الأحناف و المالكية على ورودها، و قد اشتملت هذه المجالس على مناقشة مسائل في الشريعة الإسلامية ورد فيها الخلاف خاصة بين علماء الاسماعيلية وعلماء أهل السنة[9]، و يبدو أن المعز لدين الله كان أحرص خلفاء الفاطميين على دراسة العلوم والتزود

(1) الدشراوي (فرحات) : الخلافة الفاطمية بالمغرب (296هـ-365م/909-975م) . التاريخ السياسي و المؤسسات، ترجمة حمادي الساحلي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994، ص20.

(2) ابن عذارى، (أبو العباس أمد ت. 712هـ/1312م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1980،ص150، المقريزي (تقي الدين أبو العباس ت. 845هـ/1442م) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح. جمال الدين الشيال، ج1، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996، ص66.

(3) القاضي النعمان (ابو حنيفة التميمي المغربي ت. 363هـ/974م) : رسالة افتتاح الدعوة، تح. فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت، ص239.

(4) مفردها مذبّة بكسر الميم و فتح الذال و هي ما يدفع به الذباب.

(5) انظر اليماني (محمد بن محمد كان حيا في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : سيرة الحاجب جعفر، نشر وايفا نوف، مجلس كلية الاداب، الجامعة المصرية، مج 4، ج1، القاهرة، 1936، ص 129، 130.

(6) القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، تح. الحبيب الفقي و ابراهيم شبوح و محمد اليعلاوي، الجامعة التونسية و كلية الاداب و العلوم الانسانية، تونس، 1978، ص476.

(7) أنظر القاضي النعمان، الافتتاح، مصدر سابق، ص239.

(8) الدشراوي، الخلافة الفاطمية، مرجع سابق، ص 380، 428، 426.

(9) ابن الدباغ (ابو القاسم التنوخي ت. 696هـ/1296م) : معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ج2، المطبعة العربية التونسية، تونس، 1907،ص204 و ما بعدها.

بها[10]، هذا و أظهر الفاطميون اهتماما بالغا بتحصيل العلوم الغيبية و التفوق فيها، مثل "علوم النجامة" أو "علم النجوم"، إذ كان الخليفة المنصور بالله من الذين برعوا في هذا الميدان[11].

كما جعل الخلفاء الفاطميون الأطباء مداومين على الخدمة في القصور لتطبيب الخلفاء، و من اعتل من أهل الحكم، و من أشهر هؤلاء الأطباء "اسحاق بن سليمان الاسرائيلي"[12]، و كان قد خدم المهدي، بل و لازم المنصور بالله طيلة فترة حكمه[13]، و منهم أيضا الطبيب "أحمد بن الجزار" و هو الذي تولى تطبيب المنصور بالله بعد الطبيب "اسحاق"، و قام برعايته أثناء مرضه، الى أن حضرته الوفاة، و كان ذلك في سنة 341هـ/952م"[14].

وقد اتخذ الخلفاء الفاطميون السرير[15] لجلوسهم، و تأنقوا في صنعه للدلالة على عظمة سلطانهم، و هيبتهم في نفوس الخاصة و العامة، و كان أول من اتخذه منهم الخليفة عبيد الله المهدي، الإ أن المصادر لم تسعفنا عن صفة هذا السرير و صنعته، و اكتفت بعضها بالإشارة فقط الى أن هذا السرير كان ينصب للمهدي في موضع فسيح من قصره، بعد أن يتم فرش المجلس من أسفله بفرش نفيس"[16] ، أما عن صفة سرير المعز لدين الله الفاطمي، فقد جاء في المصادر، "أن قوائمه كانت من عاج أحمر"[17].

كما اختص الفاطميون باستعمال المظلة[18]، و هي عبارة عن قبة على هيئة خيمة، قائمة على رأس عمود، لها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، و في أثناء سير موكب الخليفة يبقى حامل المظلة على يساره، مجتهدا ألا يزول ظلها عن الخليفة، و ربما يستعمل الخليفة المظلة أثناء الحروب أيضا"[19].

و سعى الخلفاء الفاطميون الى التميز بمظهرهم، فاعتنوا بملابسهم، و بذلوا فيها بسخاء، و لأجل ذلك أنشأوا دارا للكسوة[20] بالمهدية، كان يفصل فيها جميع أنواع الثياب، حيث كانت في أغلبها موشاة بالذهب أو الفضة. و من مظاهر ترف و بذخ الفاطميين أيضا، هي قيمة الهدايا التي كان يفرقونها على أعيان الدولة و كبار موظفيها، و مما جاء في هذا الشان، أن المنصور بالله حينما ضرب السكة بمدينة المنصورية، بعث منها ألف دينار الى جوذر الصقلبي[21]، كما

---

(10) الدرجيني (ابو العباس بن سعد ت. 670هـ/1272م) : طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تح. ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974، ص136.

(11) القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، مصدر سابق، ص131.

(12) هو كحال و طبيب يهودي، ولد في مصر و عاش في القيروان، و وضع كتبا في الطب و الحكمة، توفي عام 341هـ/953م. انظر ابن جلجل (ابو داود سليمان ت. 384هـ/994م) : طبقات الأطباء و الحكماء، تح. فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص87.

(13) ابن أبي دينار(محمد بن أبي القاسم ت. 1109هـ/1698) : المؤنس في اخبار افريقية و تونس، تح. محمد الشمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص60.

(14) المقريزي، الاتعاظ، ج1، ص90، الزركلي (خير الدين) : الإعلام، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، 1986، ص321.

(15) عرف ابن خلدون السرير بقوله: "أما السرير و التخت و المنبر و الكرسي، فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مترفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد، و لم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام، و في دول العجم"، المقدمة، تح. علي عبد الواحد وافي، ج2، د.ت.، ص808.

(16) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، مصدر سابق، ص119، 130.

(17) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، مصدر سابق، ج1، ص133.

(18) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص816.

(19) إدريس القرشي (عماد الدين بن الحسن ت. 872هـ/1467م) : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون التواريخ، تح. محمد اليعلاوي، ج5، دار الفكر الإسلامي، بيروت، 1985، ص173.

(20) تسمى أيضا بدار الطراز، انظر، ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص816.

(21) الجوذري (ابو علي المنصور، كان حيا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : سيرة الاستاذ جوذر، تح. محمد عبد الهادي شعيرة و كامل حسين، دار الفكر، القاهرة، 1954، ص60.

تقدم بهدايا لا تقل قيمة عن الأولى الى زعيم صنهاجة و قائد أنجاده زيري بن مناد، كان من جملتها خيول مسرجة، و لجم محلاة بالذهب و الفضة[22].

و تباهى الفاطميون في مجال الحضارة و العمران، فشيدوا القصور الفاخرة ، و الحمامات، و كثير من المنشآت. و قد كان من بين أشهر القصور التي أنشاها الخلفاء الفاطميين و تفننوا في تشييدها، نذكر مثلا قصر المنارة الذي بناه الخليفة عبيد الله المهدي له و لولي عهده القائم بأمر الله، بالمهدية في مقابل البحر[23]، كما يعد قصر الايوان و قصر الخورنق اللذان أنشاهما الخليفة المعز لدين الله بمدينة صبرة المنصورية[24] ، من أبرز بنيان الفاطميين في مجال العمارة، و لا شك أنها صورة صادقة لما كان يحياه الخلفاء و أهل تلك القصور من ترف اجتماعي[25]، بالاضافة الى ذلك كله، فقد أمر المعز لدين الله بأن تتخذ قصور أخرى على طول المسافة التي تربط من مدينة صبرة الى مصر، و كان ذلك في سنة 355هـ/965م[26].

و مما تقدم، تتوضح الصورة الحقيقية عن حياة أهل الحكم، الذين جمعوا اموال البلاد فأنفقوها على بناء القصور الفاخرة و إعداد لجم الدواب من الذهب الخالص، على حساب الرعية لتبقى الفوارق الاجتماعية بارزة بين الحاكم و المحكوم، و بين الغني و الفقير.

طبقة الجند :

حرص الفاطميون منذ اعلان خلافتهم على تكوين جيش قوي يكون قادرا على حماية كيانهم السياسي، و الدفاع عن مصالحهم في الداخل و الخارج، و لا شك أن نواة الجيش الفاطمي بدأت تتشكل مع أفراد من قبيلة كتامة، من الذين آمنوا بدعوة أبي عبد الله الشيعي، فكانوا بمثابة العصبة حوله تحميه، و تدافع عنه، و مع مرور الزمن تضاعف عددهم، و أصبحوا معه بحاجة الى نظام خاص[27] ، و إن كانت المصادر–التي بين أيدينا– لم تقدم تفاصيل حول نظام وعمل الجيش، غير أن ما يمكن استنتاجه هو أن الداعي راعى في انشائه الناحية السياسية و العسكرية، فكانت مهمة الدعاية عادة ما تسبق العمليات العسكرية عند كل فتح، و بإتباعه لهذا النظام استطاع ان يكتسح المدن و القرى، ويستولي عليها الواحدة بعد الأخرى[28] .

و بمجرد اعتلاء عبيد الله المهدي الخلافة برقادة أمسك بزمام أمور دولته، مما كان لذلك أثره داخل عناصر بناة الدولة من الكتاميين، فاتسعت الخلافات بين المهدي، و هؤلاء القادة[29]، و لأن هذه العناصر الكتامية كان لها ثقل عسكري داخل الجيش الفاطمي، فقد سارع عبيد الله المهدي الى تشكيل الجيش من جديد في سنة 300هـ/912م[30]، وفي هذه المرحلة ابتدأ نشاط الجيش يتضاعف براً و بحراً، و في الداخل و الخارج، منذ أن ثبتت قواعده الأولى. و قد

---

(22) ابن حماد (أبو عبد الله الصنهاجي ت. 628هـ/1230) : أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، مطبعة جول كاربو نيل، الجزائر، 1935، ص29.

(23) الإدريسي (ابو عبد الله محمد ت. 559هـ/1166م) : المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الافاق، تح. محمد الحاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص143.

(24) تسمى المنصورية نسبة الى مؤسسها، الخليفة المنصور بالله، انظر عنها: البكري (ابو عبد الله بن عبد العزيز ت. 587هـ/1094) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1856، ص25.

(25) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، مصدر سابق، ص24.

(26) المقريزي، الاتعاظ، مصدر سابق، ج1، ص96.

– Charles, (A.J)., Histoire de l'Afrique du nord, payot, Paris, 1952, p. 66.

(27) القاضي النعمان، الافتتاح، مصدر سابق، ص100، 125.

(28) المقريزي، اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، ج1، ص62.

(29) ابن الأثير(أبو الحسن علي ت. 628هـ/1230) : الكامل في التاريخ، ج6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص135.

(30)– Charles, (A.J)., Histoire de l'Afrique du nord, op. cit., p. 57.

كان الخليفة الفاطمي هو القائد الأعلى للجيش، و عنه تصدر الأوامر الخاصة بالحرب، كما يتولى بنفسه الأشراف على تنظيم صفوف الجيش[31]، و أصبح المهدي يجلس على عرش الخلافة في رقادة، و يشرف مباشرة على تسيير الجيوش الغازية ضد بلاد الروم، أو قد يكلف بذلك ولي عهده القائم[32].

و نظرا لاتساع طبقة الجند، و ما يمكن أن تتطلبه من نفقات، و أعباء، فقد أنشاء المهدي ديواناً خاصاً بالجيش، مهمته إدارة شؤون هذه المؤسسة الحيوية، أطلق عليه اسم ديوان العطاء[33]. أما عن شروط الالتحاق في صفوف الجيش الفاطمي، أو نظام الارتقاء في مراتبه، فأن الأمر يتوقف على مدى تفاني الجندي في الخدمة، فان ذلك من شأنه أن يرفع من رتبته في الجندية، من مجرد جندي بسيط الى قائد عام الجيش[34].

عناصر الجيش : لقد تألف الجيش الفاطمي من عناصر مختلفة، و كان اعتماد السلطة الفاطمية على كل عنصر منها، بحسب كل مرحلة من مراحل الخلافة، بالموازاة، إذ نجد في مقدمة هذه العناصر ما يلي:

1- العناصر الكتامية : و قد كانوا نواة الجيش الفاطمي و عصبته، ممن ناصروا الدعوة الاسماعيلية، و دافعوا عن مبادئها، و لما عرفوا به من قوة و شدة و بأس من قبل ظهور الدعوة أو بعدها، و نسبتهم الى قبيلة كتامة، التي كانت: "من أشد قبائل البربر بالمغرب"[35]، و لعل هذه الخصائص جعلت خلفاء الفاطميين يسعون منذ البداية الى استمالة عناصرها، و استغلال امكاناتهم القتالية[36]، ضد خصومهم سواءً في الداخل أو الخارج.

و يبدو أن دور العناصر الكتامية بدأ في التراجع لا سيما على عهد الخليفة المعز لدين الله، إذ قام بإحداث تغيير في سياسة الجيش بأن فسح المجال لغير الكتاميين، كي يلعبوا دورهم فيه، وقدمهم على الكتاميين، و كان ذلك، حينما قدم جوهر الصقلي، على الكتامي جعفر بن فلاح[37] ، كما عين يوسف بن زيري الصنهاجي الاصل[38]، على بلاد المغرب عندما أراد الرحيل الى مصر دون ان يختار شخصية كتامية.

2. العناصر الصنهاجية[39] : لقد اشتهر العنصر الصنهاجي ضمن طوائف الجند الفاطمي، و يعود الفضل في توطيد رابطة قبيلة صنهاجة بالفاطميين الى زعيمها، زيري بن مناد، و مواقفه العسكرية الى جانب الخلافة الفاطمية في حربها ضد حركة أبي يزيد مخلد الزناتي الخارجية[40] ، و يتضح أن المصلحة المشتركة بين الطرفين، كانت الدافع في

---

(31) الجوذري، سيرة جوذر، مصدر سابق ص39.

(32) ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص168.

(33) القاضي النعمان، الافتتاح، مصدر سابق، ص304.

(34) إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين، مصدر سابق، ج5، ص85.

(35) ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ج4، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص7.

(36) ابراهيم حسن (حسن) : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص44.

(37) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار المغرب، مصدر سابق، ص61.

(38) الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج3، ص63.

(39) ينتسبون الى قبيلة صنهاجة و هي أكبر القبائل البربرية و موطنها بين المغرب الأوسط و افريقيا. انظر ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج 6، ص 205.204.

(40) هددت هذه الحركة الخلافة الفاطمية في عهد الخليفة القائم و تمكنت من الاستيلاء على القيروان، لكن خليفته المنصور اسماعيل تمكن من أسر أبي يزيد و القضاء على حركته في عام 326هـ. أنظر ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، مصدر سابق، ص18 و ما بعدها، ابن الحاج (سليمان) : ثورة أبي يزيد، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1997.

أحداث هذا التقارب، و انضواء الصنهاجين تحت لواء الفاطميين كي يستظهروا بهم على قبيلة زناتة عدوهم التقليدي[41]، و زاد شأن هذه القبيلة في عهدي الخليفة المنصور[42] و المعز لدين الله[43] .

3. العناصر الصقلبية : شارك الصقالبة[44] بدورهم في الجيش الفاطمي كجند مرتزقة. و قد استفاد الفاطميون أيما إفادة من خدمات هذه العناصر في المجال العسكري، حيث برز منهم قواد عسكريون أكفاء قادوا جيوش الفاطميين الى الإنتصار في كثير من المواجهات العسكرية التي خاضوها ضد خصومهم، فقد استطاع بشرى الصقلبي أن يقود باقتدار الجيش الذي أنقذ عبيد الله المهدي و ابنه القائم من أسرهما في سجلماسة[45].

4. **العناصر الرومية[46]** : امتازت العناصر الرومانية في الجيش،حيث كانت ضمن فرقه النشطة، بحذقهم في صناعة كل انواع الاسلحة، و ما يحتاج إليه الجيش لأداء مهامه العسكرية[47]، و لعل ما بلغه جوهر الرومي الصقلي[48] من مكانة يعدّ صورة لما يمكن أن تصل إليه عناصر هذه الفرقة من سلطة و نفوذ عسكري، إذ تمكن من توطيد الأمن في أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة، و اتمام الفتوحات العسكرية التي استهلها أبو عبد الله في سنة 291هـ/903م، حيث أخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد، حتى دانوا له بالطاعة و الولاء[49]، فعظم شأن جوهر الرومي عند المعز لدين الله فاختاره لفتح مصر، و لقبه "بالقائد"[50].

5. العناصر السودانية[51] : انتظمت هذه العناصر في فرق خاصة داخل الجيش تعمل في ظروف استثنائية، كالتجسس[52]، أو ربما اوكلت لهم مهام اخرى، مثل قيامهم على تعذيب المخالفين للسلطة الفاطمية[53]، لكن دور هذه

---

(41) عن جذور الصراع الصنهاجي الزناتي، أنظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص153، النويري (شهاب الدين ت. 732هـ/1332م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. حسين نصار ، ج24، ص159، عبد الكريم يوسف (جودت) :الاوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين من 10.9م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص465.

(42) إدريس القرشي،، تاريخ الخلفاء الفاطميين، مصدر السابق، ص221، ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، مصدر السابق، ص29.

(43) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج6، ص354.

(44) الصقالبة هم شعوب منحدرة من اصول شتى، و التي كانت تنزل الاراضي المجاورة لبلاد الخزر، بين القسطنطينية، و أرض البلغار، للمزيد انظر، القرطبي (أبو عمر النمري ت. 463هـ/1070م) : القصد و الامم في التعريف بأصول انساب العرب و العجم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1931 ، ص35، ابن خرداذابة (أبو القاسم عبيد الله ت. 300هـ/913م) : المسالك و الممالك، دار صادر، ليدن، بيروت، 1889، ص 150.

(45) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، مصدر سابق، ص128. سجلماسة مدينة شيدت عام 140هـ/757م، في قلب واحة خصبة في الجنوب الشرقي للمغرب الاقصى و كانت عاصمة بني مدرار الخارجية الصفرية.

(46) الروم هو مصطلح أطلقه العرب على كل الشعوب التي تعيش على أراضي الدولة البيزنطية و اليونانية و الايطالية. و كان يؤتى بهم عن طريق الشراء كعبيد أو كأسرى حرب.

(47) الزركلي، الاعلام، مرجع سابق، ج2، ص146، الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد سيد، ج3، الكويت، 1961، ص16.

(48) هو جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، باني القاهرة و الجامع الازهر، من موالي المعز، سيره من القيروان الى مصر، فدخلها سنة 358هـ/968م، و ارسل الجيوش لفتح بلاد الشام و ضمها اليه، و بقي حاكما مطلقا، الى ان قدم المعز محله، و صار من عظماء قواده، انظر الذهبي، ابراهيم حسن (علي) : تاريخ جوهر الصقلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1963، ص14 و ما بعدها. و لقب بالصقلي نسبة الى جزيرة صقلية، انظر عنها: الحموي (ابو عبد الله ياقوت ت. 626هـ/1228م) : معجم البلدان، تح. فريد عبد العزيز الجندي، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص416 و ما بعدها.

(49) الذهبي، العبر، مصدر سابق، ص16.

(50) ابراهيم حسن، تاريخ جوهر الصقلي، مرجع سابق، ص16.

(51) و هم السودان الذين كان يؤتى بهم من بلاد النوبة و الحبشة و الزغاوة، و غيرها من المناطق، عن طريق التجارة، انظر ابن حوقل (أبي القاسم محمد ت. 367هـ/977م) : صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، 1992 ، ص55.

(52) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، مصدر سابق، ص122.

(53) المالكي (ابو بكر عبد الله ت. 474هـ/1081م) : رياض النفوس في علماء القيروان و تونس و زهادهم و نسائهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، تح. بشير البكوش و أحمد العمروسي المطوي، ج2، دار الغرب الإسلامي للطباعة و النشر، بيروت، 1981، ص63.

العناصر بدا يتضح أكثر على ايام الخليفة المعز لدين الله، حيث كانت ضمن فرق الجيش، الذي سيره هذا الأخير لفتح مصر في سنة 362هـ/972م[54].

و فحوى القول أن كل هذه العناصر شكلت الدعامة الأساسية التي تألف منها الجيش النظامي الفاطمي، بالإضافة الى بعض العناصر الأخرى التي التحقت به، بصفتهم مرتزقة، و مهما يكن من أمر فإن الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية المزرية، كانت دافعا مباشرا أو غير مباشر لهؤلاء الجند للالتحاق بصفوف الجيش الفاطمي، أملا في تحسين أحوالهم المعيشية.

طبقة التجار:

احتلت طبقة التجار مكانة مرموقة في مجتمع المغرب الإسلامي في العصر الفاطمي، و يأتي تصنيفها بعد الطبقة الحاكمة و طبقة الجند، لا سيما و أن مصالح هذين الأخيرين مرتبطة بها، رغم ما قد يحدث من توترات نتيجة لسياسة جبائية ثقيلة أو لجوء بعض الحكام الى مصادرة أموال التجار بوجه أو بأخر. و يبدو أن الوضع الإجتماعي للتجار على عهد الفاطميين كان مريحاً، و بخاصة إذا علمنا أن أبا عبد الله الشيعي قد منحهم الامان، و أحسن استقبالهم في جملة وجوه القيروان لما دخلها سنة 296هـ/908م[55].

لقد تمتع التجار في العصر الفاطمي بحرية نشاط كبيرة شجعت عناصر هامة بما في ذلك الأجانب على الولوج الى بلاد السودان، و حتى أوروبا، و قد لعب التجار اليهود دوراً رئيسياً في انتعاش حركة المبادلات التجارية، و بخاصة بعد أن أحكموا سيطرتهم على أهم تجارتين في تلك الفترة، الذهب و الرقيق[56]، و قد كانت الدولة الفاطمية تلزم هؤلاء اليهود بدفع ضريبة متاجرهم، تعرف بضريبة الجوالي[57]، و ذلك في مقابل السماح لهم بحرية النشاط التجاري، و التنقل على أراضيها[58].

ويبدو أن النشاط التجاري لم يكن مقصورا على التجار المحليين أو اليهود فحسب، بل أن هناك ما يدل على دور عناصر اندلسية لم يقل نشاطها عن التجار اليهود، حيث أصبحت هي الأخرى تمثل قوة بشرية و اقتصادية لا يستهان بها في بلاد المغرب، و قد ورد في بعض المصادر أن سنة 291.290هـ/903.902م، هي تاريخ ارتباط هذ العناصر الأندلسية ببلاد المغرب، و أن مدينة تنس تعد مما خلفه هؤلاء بالمنطقة على حد تعبيرها[59].

و لا شك أن عبيد الله المهدي كان قد فكر في ظروف عمل و إقامة هؤلاء التجار الغرباء عن البلاد، لذا أنشأ لهم فنادق خاصة لإيوائهم، و حمامات لراحتهم، بما في ذلك ملحقات و مرافق ضرورية، و قد حرص المهدي أن تكون قريبة من مكان نشاطهم[60]، كما يمكن أن نتخيل وجود كنائس و أديرة للرهبان اتخذت للعبادة، بالنسبة لغير المسلمين، و لاستقبال كل هذه الجاليات الكبيرة.

و قد نستدل على درجة الثراء التي بلغها تجار تلك الفترة، بالنص الذي ذكره ابن حوقل حيث أورد في هذا الشأن: " و لقد رأت بأودغست صكا فيه حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، و هم من اهل سجلماسة باثنين

---

(54) لومبار (موريس) : الاسلام في مجده الاول، تر. اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1979، ص92.

(55) ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق ج1، ص150.

(56) ابن خرداذابة، المسالك و الممالك، مصدر سابق، ص20.

(57) يقصد بها الضرائب الموضوعة على الجماجم، حيث يقوم مباشر الجوالي بإلزام رئيس اليهود بكتابة رقاع، تحتوي على مراتبهم، و بمن دخل منهم الى ارض المسلمين، للمزيد انظر، النويري، نهاية الارب، ج8، ص242.

(58) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص72.

(59) لومبارد، الاسلام في مجده الاول، مرجع سابق، ص101.

(60) التيجاني (ابو عبد الله محمد ت. 717هـ/1317م) : رحلة التيجاني، ، ت. حسن حسني و عبد الله بن محمد، تونس، 1967، ص329.

وأربعين ألف دينار، و لا رأيت، و لا سمعت لهذه الحكاية شبيها و لا نظيراً"[61]، و هذا يحملنا على القول بان صاحب هذا المبلغ المالي كان من التجار الاثرياء.

كما ذكرت في بعض كتب التراجم قصص مماثلة لتلك التي أوردها ابن حوقل[62]، يمكن أن نستنتج منها، أن التجار كانوا في العادة ممن يمارسون ميدان التجارة الكبرى، مثل تجارة الملح، و الذهب، و حتى تجارة المرجان، و يبدو أن هذه الأخيرة كانت تدر على أصحابها أموالا طائلة، انعكست على أحوالهم الاجتماعية و الاقتصادية، التي كانت أقرب الى حياة الترف[63]، ناهيك عن تلك الأرباح الكبيرة التي كانت تجنيها حاشية السلطان من تدخلها في التصرف مع التجار، و مزاحمتهم في الأسواق، مثل ما حدث على أيام الخليفة المنصور بالله، الى درجة أن جوذرا كان يمنعهم من ذلك و يزجرهم عنه، و لا غرو في ذلك، فقد كان جوذر الصقلبي نفسه تاجراً، و أحد المقربين الى الخليفة الفاطمي[64].

و إذا كان هذا حال بعض التجار الأغنياء، فإنهم مع ذلك لا يمثلون الإ فئة قليلة العدد، بحكم موقعها في قمة الهرم الاجتماعي و كونها صاحبة امتيازات و ثروات طائلة، إذا ما قورنت بغيرها من التجار الصغار، و بخاصة تجار البوادي و الأرياف المعزولة، الذين طالما اشتكوا من ثقل الضرائب المفروضة عليهم[65].

وقصارى القول، أن هذه الطبقة شكلت العمود الفقري للخلافة الفاطمية، فكان التجار عنصراً فعالاً في المجتمع، فأثروا وتأثروا بما حولهم من أحداث، دون أن ينقطع نشاطهم الدؤوب، و لعل أصدق مثال على هذه الحقيقة، هو خروج المرأة الى السوق، و مساهمتها الى جانب الرجل في إنعاش التجارة[66].

طبقة العامة :

تأتي طبقة العامة في أسفل الهرم الاجتماعي، و يمثل أفرادها السواد الأعظم من الناس. لقد ارتبط مفهوم العامة في نظر الفاطميين بكل ما هو حقير و وضيع، فقد شبههم المعز لدين الله الفاطمي بـ "الحجرة التي لا رونق لها ولا جوهر" ، كما وصفت في موضع اخر بـ "الحمير و الجهال"[67]، و على العموم فإن طبقة العامة يمكن أن تشمل جميع فئات المجتمع، و التي تتكون من: الزراع و الفلاحين، و أصحاب المهن و الصناعات، و صغار التجار، والعاطلين عن العمل.

و تجدر الإشارة الى أن أحوال العامة قد ساءت في القيروان، و في أغلب المناطق التي شملها حكم الأغالبة، نتيجة للسياسة الجبائية الثقيلة التي اتبعها امراء هذه الدولة ضد ملاك الأراضي و الفلاحين، و التجار، لا سيما خلال فترة حكم الأمير ابراهيم بن أحمد 261-289هـ/875-902م[68]. و قد استمرت أحوال العامة على هذا السوء و التدهور حتى سنة 296هـ/908م، فعمت الفوضى البلاد، و انتشر الفساد، و قد استغل أبو عبد الله الشيعي هذه الاضطرابات الاجتماعية في دعايته، كي يؤلب قلوب العامة للثورة على حكم الأغالبة[69].

---

(61) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 96.

(62) ابن الدباغ، معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص212-213.

(63) ابن حوقل، صورة الارض، مصدر سابق، ص77.

(64) الجوذري، سيرة جوذر، مصدر سابق، ص 62، 99.

(65) القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، مصدر سابق، ص337.

(66) المالكي، رياض النفوس، مصدر سابق، ص50.

(67) القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، مصدر سابق، ص232 ، 396 و ما بعدها.

(68) هو سابع أمراء البيت الأغلبي، و أطولهم حكما، اتسم حكمه بالاضطراب، فقد فرض الضرائب على الفلاحين و أصحاب الأراضي، وعندما بدأ الفاطميون يتوسعون في إمارته، عاد ليسقط الضرائب مرة اخرى لإرضاء العامة و استمالة الخاصة. ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص131.

(69) المقريزي، الاتعاظ، مصدر سابق، ج1، ص62.

و لم تركن العامة الى الهدوء، إلا بعد أن استوثق حكم عبد الله الشيعي على رقادة، معلنا أمامها، النهوض بإصلاحات اجتماعية و اقتصادية لصالحها، مستهلاً أعماله، بمحاربة الفساد، و قطع الملاهي في البلاد، فكان تصرفة هذا سبباً في التفاف العامة حوله[70]، و نستنتج مما سبق، أن العامة، كانت تتحين الفرصة المواتية للانقضاض على ملك الأغالبة، الذين تسببوا في نهب ثرواتها. و ما أن حلّ المهدي بالقيروان سنة 296هـ/908م حتى هب أهلها لاستقباله، و كان بينهم فقهاء، ووجوه، و تجار، معلقين آمالاً كبيرة في شخص الخليفة.

و يندرج تحت طبقة العامة أيضا فئة الفلاحين و أصحاب الأراضي، و بما أن خدمة الأرض هي أساس كسب هؤلاء، فإن ثقل الضرائب التي فرضها الفاطميون، على الفلاحين، و خاصة على أيام عبيد الله المهدي، كانت سببا في تدهور أحوالهم الاقتصادية و الاجتماعية، فقد أورد ابن عذاري في هذا الصدد: "أنه في سنة 303هـ/915م، ولى عبيد الله بإفريقية الخراج عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبي محرز القاضي، فتولى بوظيف التقسيط على ضياع إفريقية، بعد ان وزع جميعها، و نظر الى أوفر مال ارتفع من العشور في سنة و أقله"، ثم فرضوا التضييع[71] سنة 305هـ/917م، و قد زاد الامر سوءاً الجور الشامل، و التعلل على أموال الناس من كل جهة"[72]، أي فرضوا ضرائب جديدة تحت اسماء، و ذرائع متنوعة، فيكون هؤلاء قد اشتطوا في عملية جمع الأموال، دون مراعاة لأحوال الناس المالية، حيث ارتفعت الأسعار بشكل واضح في الأسواق على عهدهم، و لم يتمكن الباعة من تسديد ما عليهم من ضرائب[73]، و إذا كانت الضريبة التي تفرضها الدولة على الفلاح باهظة، فمن الطبيعي ان يلجأ هذا الأخير للزيادة في سعر المنتوج، كي يضمن الحد الأدنى من الربح. و بالتالي فان عبء هذه الزيادة يستعملها المستهلك، فيقع عليه الضرر تباعا، و لهذا فمن المحتمل أن فئة الفلاحين و أصحاب الاراضي بوجه عام كانت ضمن الفئات الاجتماعية، التي انضوت تحت حركة أبي يزيد مخلد الخارجية ضد الحكم الفاطمي، لسبب الضرائب الباهظة الملقاة على عاتقهم[74]، أي أنها في جوهرها اقتصادية اجتماعية، أكثر منها مذهبية، و لا غرو في ذلك فقد كان أنصارها يتألفون من سكان البوادي المقيمين بجبال الاوراس، و جبال بني برزال، و المناطق المعزولة[75].

و على الرغم من الإصلاحات الاجتماعية و الاقتصادية، التي أعلن عنها الخليفة المنصور بالله لصالح الرعية، مثل إعفاء الرعية من الجباية لسنة 335هـ/946م، كي يساعدها على تعمير أراضيها، و ممارسة نشاطها الفلاحي، إلا أن هذه الإصلاحات، لا تعدو أن تكون محاولة منه لذر الرماد في أعين العامة، حتى لا تعود للثورة على الحكم.

و قد نجد ضمن هذه الطبقة، فئة الفقراء و المساكين، و هي بلا شك تمثل الجزء الأكبر في المجتمع الفاطمي، إذ أن ظروف الحرب التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي كان لها الأثر المباشر في زيادة نسبة هذه الفئة في المجتمع، نتيجة لأعمال السلب و النهب التي استهدفت أموالها و ممتلكاتها، فافتقرت و أعدمت أقواتها[76].

هذا و يمكن إدماج فئة اللصوص و قطاع الطرق ضمن طبقة العامة، لانها فئة اجتماعية تمردت على واقعها المرّ، فبدأت تتبع اسلوباً حاداً في كسب قوتها اليومي، فاجتمعت في فئات لتكون أقدر، و مهما يكن فإن هذه الفئة لم

(70) القاضي النعمان، الافتتاح، مصدر سابق، ج1، ص246.

(71) و هي إحدى الضرائب التي فرضها الفاطميون على القرى و الضياع في شمال أفريقيا.

(72) ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق، ص 181،173،149.

(73)- Marsais, (G)., La berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, édition montagne, Paris, 1946, p. 144.

(74) القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، مصدر سابق، ص336.

(75) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج7، ص15، ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج6، ص 310.

(76) إدريس القرشي، تاريخ الخلفاء الفاطميين، مصدر سابق، ج5، ص195،145.

تكن تعتبر أن احتراف مهنة اللصوصي جريمة، بل هي في تصورها مهنة للارتزاق، و ربما حملت على عاتقها مهمة تطبيق الشرع في أموال الاغنياء، طالما ظل هؤلاء الاغنياء في نظرها يمنعون الصدقات، التي أمرهم الله بدفعها الى الفقراء.

و قد شكلت هذه الفئة خطراً كبيراً على عهد الفاطميين، فأصبحت تعترض سبيل التجار، و أصحاب الأموال، وحتى القضاة لم يفلتوا من قبضتها، فقد توفي ابو العباس اسحاق بن ابراهيم، قاضي طرابلس مقتولاً، على أيدي مجموعة من اللصوص، و انتهبوا ماله و كان ذلك سنة 303هـ/915م[77].

و يبدو أن خطر هذه الفئة أخذ يتفاقم خاصة على عهد الخليفة المنصور بالله، فأصبحت تعترض طريق قوافل الخليفة نفسه، و تنتهب كل ما تحمله من متاع[78]، و قد استمر خطر اللصوص حتى على أيام الخليفة المعز لدين الله، رغم الهدوء النسبي الذي طبع البلاد في فترة حمكه، و لهذا فقد اتخذ المعز اجراءات ردعية للتقليل من خطر هؤلاء، بأن أعطى الأوامر بمنع الناس من الخروج ليلاً، بعد أداء صلاة العشاء، و توعد المخالفين بضرب أعناقهم، و قد كان لا يخرج حينئذ إلا من يسرق[79]. و قصارى القول، ان العامة بحكم جهلها، و بساطة الحياة التي كانت تحياها، فقد تعرضت أملاكها لكل أشكال الظلم و الابتزاز، بل إنها وقعت ضحية لوعود السلطة الفاطمية، التي لم تحرك ساكنا لتحسين أوضاعها الاجتماعية و الاقتصادية.

طبقة العبيد:

لقد شكل العبيد على اختلاف أجناسهم و ألوانهم شريحةً كبيرةً داخل النسيج الاجتماعي للمغرب الإسلامي، وفي عهد الفاطميين أيضاً، و قد أصبح تأثيرهم ملحوظاً، لا سيما في المجال الإداري العسكري، كما في باقي المجالات الأخرى بصورة أشمل، هذه فضلاً عن الوظائف الأساسية المنوطة بهم، كالخدمة في قصور الخلفاء و الأمراء، و ما يتعلق بالأعمال المنزلية و غيرها.

وتجدر الإشارة في هذه المقام، الى أن اتخاذ العبيد و تسخيرهم في الخدمة، لم يكن مقصوراً على الفاطميين فحسب، بل إن الأمر أصبح تقليداً شائعاً في أغلب الدول الإسلامية، و لا سيما لدى حكام المغرب الإسلامي ابتداء من القرن الثاني الهجري/التاسع الميلادي، فقد اتخذ ابراهيم بن الأغلب (184هـ/800م) مؤسس الامارة الأغلبية حرسه الشخصي من أفراد هذه الطبقة، إذ كان من بينها من كان يحمل عنه السلاح[80]، و لا غرو أن أصبح عدد العبيد يتضاعف شيئاً فشيءً بعد ذلك، إذ كان للموقع الجغرافي الخاص لبلاد المغرب الإسلامي، الأثر البالغ في تطور المسالك التجارية، و في ازدهار تجارة الرقيق و الذهب بخاصة.

و قد قدرت بعض المصادر عدد العبيد الذين اتخذهم عبيد الله المهدي في بداية خلافته، ما بين رومي وسوداني فبلغ حوالي اثني عشر ألفا، بالإضافة الى ذلك تلك الأعداد الهائلة من السبايا، التي كانت تعود بها الجيوش الفاطمية من غزواتها ضد الروم و صقلية، حيث بلغ عدد ما سبوه في غزوة واحدة حوالي عشرة آلاف سبية، و كان ذلك على أيام الخليفة عبيد الله المهدي[81]. و يمكن تقسيم طبقة العبيد الى ثلاثة أجناسٍ رئيسيةٍ، و هذا بحسب أولوية كل منها

(77) ابن الدباغ، معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص228.

(78) الجوذري، سيرة جوذر، مصدر سابق، ص69.

(79) المالكي، رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص487.

(80) الرقيق (أبو اسحاق ابراهيم ت. 423هـ/1031م) : تاريخ إفريقية و المغرب، تح. عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص187.

(81) ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص190، ادريس القرشي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص71.

لدى السلطة و هم كالاتي: صقالبة، سودان، و روم. و لا شك أن العبيد كانوا اليد العاملة و الفنية التي عول عليها الفاطميون لتشييد أغلب المدن و القرى التي أنشئوها في بلاد المغرب الإسلامي، على غرار مدينة المهدية و المسيلة، و المنصورية، و أشير.

و هكذا، يتضح لنا، تعدد أدوار طبقة العبيد في مجتمع المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين، و التي شملت كل الميادين و مجالات الحياة، من إدارية و عسكرية و اجتماعية، و غيرها، و قد كان الاعتماد على هذه الطبقة بحسب الحاجة إليها.

طبقة أهل الذمة :

اهل الذمّة : هو مصطلح اطلق على كل من دخل في ذمّة الاسلام أي تحت حماية المسلمين وقد اقتصر هذا المصطلح على أهل الكتاب وخاصة اليهود والنصارى، و هكذا نستطيع القول أن أهل الذمة هم سكان الدولة الإسلامية الذين اختاروا دفع الجزية وبقوا على دينهم فأصبحوا في حماية المسلمين. لقد عاش أهل الذمة من اليهود و النصارى في ظل السيادة الفاطمية، و تأثروا بجو الأحداث السائد في المجتمع، كما كان لهم نصيب وافر في النشاط الاقتصادي و الحضاري، باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من مجتمع المغرب الإسلامي، يتأثرون بالأحداث الجارية، و يخضعون لنفس الظواهر التي خضع لها المجتمع في تلك الفترة.

لا شك أن أهل الذمة من اليهود و النصارى، شكلوا جاليات ضمن سكان المغرب الإسلامي، فقد ورد في كتب بعض الجغرافيين أن بيوت اليهود كانت تجاور بيوت المسلمين و النصارى، و إذا كان من الصعوبة بمكان تحديد مناطق تواجد هذه الجاليات من البلاد، و غياب إحصائيات دقيقة حول عددهم، فإننا نكتفي بما ورد من إشارات في بعض المصادر، و لعل من أبرز المدن التي شهدت حضورا واسعا لجاليات يهودية و نصرانية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، مدينة طرابلس[82]، و مدينة قابس[83]، و قد كانت الدولة تقوم بحمايتهم بصفتهم معاهدين، فالمسلمون، و الذميون في نظر الإسلام رعية واحدة، لدولة واحدة، تتمتع بحقوق واحدة، و تنتفع بمصالح الدولة العامة[84].

و قد استغرب المستشرق ميتز من حالة الأمن و الاستقرار التي نعم بها أهل الذمة إبان الحكم الفاطمي، إذ أورد في هذا الصدد: "و قد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له، إذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم"[85]. و الظاهر هذه الظروف الأمنية المستقرة، شجعت أعداداً كبيرةً من اليهود و بخاصة منهم التجار على الهجرة الى بلاد المغرب الإسلامي، و لأن نشاطهم يعود على الدولة و الخزينة بالفائدة، فقد فرض عليهم الفاطميون ضريبة مقابل السماح لهم بالنشاط التجاري، و حرية الانتقال بين مدن المغرب الإسلامي بما لديهم من التجارة، و هذه الضريبة كانت تسمى على عهد الفاطميين بالجوالي[86].

أما بالنسبة لأهل الذمّة الذين يفضلون البقاء على دينهم، و ممارسة شعائرهم الدينية، فإنهم يلتزمون بدفع ضريبة الجزية في كل سنة الى بيت المال الفاطمي، أما ما يتعلق بأحكام دفع هذه القيمة المالية، فتكون بحسب حال الذمّي من

(82) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية ، مصدر سابق، ص9.

(83) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص72.

(84) الصالح (صبحي) : النظم الإسلامية . نشأتها و تطورها، دار العلم للملايين، بيروت، 1995، ص363.

(85) ميتز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، ج1، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة، القاهرة، 1940، ص81.

(86) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص72.

غنى أو فقر، فالغني يدفع ثمانية و أربعين درهماً، و متوسط الحال أربعة و عشرين درهماً، أما الفقير فيدفع اثني عشر درهماً، حسب ابن عذارى[87].

و الملاحظ أن الجزية قد تسقط عن أهل الذمة من اليهود و النصارى، بمجرد دخول هؤلاء في الاسلام، لأنهم يدخلون في جملة المسلمين، فيتساون معهم في الحقوق و الواجبات، و تسري عليهم الأحكام و الحدود كما تسري على المسلمين، فإن حدث و أن أسلم الذمّي ثم عاد الى دينه، فحكمه في ذلك حكم المرتد عن دينه، وفق نصوص الشريعة الإسلامية، إذ يستتاب ثلاثة أيام، فإن أصر على ذلك قتل[88].

وعلى الرغم من فترات الهدوء التي شعر بها أهل الذمة في كنف الفاطميين، إلا أن الحروب و الاضطرابات التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي على عهدهم، أثرت سلبا على أحوالهم الاجتماعية و الاقتصادية شأنهم في ذلك مثل غيرهم من السكان، إذ تعرضت ممتلكاتهم و أموالهم الى السلب و النهب، كما خربت مساكنهم، و قد تكون الأضرار بالنسبة لهم أكبر، خاصة إن كانوا ممن يقيم في البوادي، و بعض المناطق المعزولة، فعندها تكون السلطة عاجزة عن حمايتهم، فيصيرون لقمة سائغة لمحترفي اللصوصية و قطاع الطرق[89].

ومهما يكن من الأمر فقد تمكن بعض اليهود من النفوذ الى بلاط الخلفاء الفاطميين .كما سبق و أن ذكرنا. مثل الطبيب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي، الذي اهتم بتطبيب عبيد الله المهدي، و قد سمح له قربه من السلطان الى التفرغ للتأليف والكتابة، حيث وضع أمهات الكتب في الأغذية و الأدوية و الفلسفة و المنطق، قال عنها ابن جلجل "إنه لم يسبقه إليها أحد"[90]. كما تمكنت بعض العناصر النصرانية من الدخول في خدمة الخليفة عبيد الله المهدي و العمل في بلاط قصره بالمهدية، مثل أم علي القهرمانية، التي كانت تتولى اعداد مائدة الطعام للمهدي[91].

وخلاصة القول، فإن الاوضاع الاجتماعية لأهل الذمة كانت في تحسن في ظل حكم الفاطميين لبلاد المغرب الإسلامي، بدليل تمكنهم من ممارسة نشاطهم التجاري، و إبتناهم الكنائس و الأديرة، بل استطاع بعضهم الولوج الى قصور الخلفاء أنفسهم، و اشتغالهم في وظائف مختلفة كالطب، و الطبخ و غيرهما.

خاتمة:

عند البحث عن تقسيم واضح لطبقات المجتمع المغربي في العصر الفاطمي في كتابات المؤرخين الذين ارخوا لهذا العصر او الرحالة الذين زاروا المغرب خلاله فإننا نلاحظ، أن الروايات التاريخية المعاصرة في معظمها تهتم بأخبار الخلفاء و حروبهم و صراعاتهم السياسية في الداخل و الخارج، و بعضها يتعرض لحياتهم الخاصة و مواكبهم واحتفالاتهم الرسمية، و أغفلت تلك الروايات ذكر ما يتعلق بحياة عامة الناس.

و بناء على ذلك يمكن القول إن المجتمع المغربي في العصر الفاطمي، كان مجتمعا طبقياً في علاقاته واتجاهه وهو الامر الذي انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة في المغرب آنذاك. لقد أفرزت هذه الطبقية، بروز نمطين متباينين من حيث المستوى الاجتماعي و الاقتصادي، فهناك فئة مترفة تمتلك الأموال و القصور و الثروات، و كان

(87) ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص141.

(88) الجوذري، سيرة جوذر، مصدر سابق، ص126.

(89) ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص73.

(90) ابن جلجل، طبقات الأطباء و الحكماء، مصدر سابق، ص87.

(91) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، مصدر سابق، ص108.

لهم كل الحقوق و الامتيازات، و لهم فقط حق الحكم و الإدارة، مثّلها الخلفاء، و الأمراء، و القضاة، و الدعاة، و الجند، و فئة محرومة سخرت انتاجها و ثرواتها، لخدمة الفئة الأولى، دون أن يكون لأفرادها الحق في المشاركة بمسؤوليات الحكم، و مثّلها الفلاحون، وصغار التّجار، و الصّناع، و الحرفيون و الفقراء.

و لقد حظي بعض العبيد لدى الفاطميين بمكانة مرموقة، فاعتلوا أعلى المراتب في أجهزة الحكم و الإدارة، مثل صندل الفتى الأسود، الذي كان يقود فرقة العبيد السود ضمن الجيش الفاطمي، لقمع تمرد قبيلة كتامة ضد الخليفة عبيد الله المهدي، بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي. كما تمتع أهل الذمة في المغرب بمكانة اجتماعية و اقتصادية عالية ورفيعة، و كان بعض أفرادها على صلة وثيقة، و قوية، و مباشرة، مع السلطة الحاكمة و يعود ذلك الى اشتغالهم بمهن مهمة يحتاجها جميع أفراد المجتمع كالطب و الصيدلة.

المصادر والمراجع:

المصادر :

1. ابن أبي دينار(محمد بن أبي القاسم ت. 1109هـ/1698) : المؤنس في أخبار افريقية و تونس، تح. محمد الشمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.

2. ابن الأثير (أبو الحسن علي ت. 628هـ/1230) : الكامل في التاريخ، ج6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949.

3. ابن جلجل (ابو داود سليمان ت. 384هـ/994م) : طبقات الأطباء و الحكماء، تح. فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.

4. ابن حماد (أبو عبد الله الصنهاجي ت. 628هـ/1230) : أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، مطبعة جول كاربو نيل، الجزائر، 1935.

5. ابن حوقل (أبي القاسم محمد ت. 367هـ/977م) : صورة الارض، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، 1992.

6. ابن خرداذابة (أبو القاسم عبيد الله ت. 300هـ/913م) : المسالك و الممالك، دار صادر، ليدن، بيروت، 1889.

7. ابن خلدون (عبد الرحمن ت. 808هـ/1405م) : . المقدمة، جزءان، تح. علي عبد الواحد الوافي، د.ت.

. العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 4.6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967.

8. ابن الدباغ (ابو القاسم التنوخي ت. 696هـ/1296م) : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، ج2، المطبعة العربية التونسية، تونس، 1907.

9. ابن عذارى (أبو العباس أمد ت. 712هـ/1312م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1980.

10. ادريس القرشي (عماد الدين بن الحسن ت. 872هـ/1467م) : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون التواريخ، تح. محمد اليعلاوي، دار الفكر الإسلامي، بيروت، 1985.

11. الادريسي (ابو عبد الله محمد ت. 559هـ/1166م) : المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الافاق، تح. محمد الحاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

12. البكري (ابو عبد الله بن عبد العزيز ت. 587هـ/1094) : المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1857.

13. التيجاني (ابو عبد الله محمد ت. 717هـ/1317م) : رحلة التيجاني، ت. حسن حسني وعبد الله بن محمد، تونس، 1967.

14. الجوذري (ابو علي المنصور، كان حيا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : سيرة الاستاذ جوذر، تح. محمد عبد الهادي شعيرة و كامل حسين، دار الفكر، القاهرة، 1954.

15. الحموي (ابو عبد الله ياقوت ت. 626هـ/1228م) : معجم البلدان، تح. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

16. الدرجيني (ابو العباس بن سعد ت. 670هـ/1272م) : طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تح. ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974.

17. الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله ت. 748هـ/1347م) :. العبر في أخبار من عبر، تح. فؤاد السيد، الكويت، 1961.

18. الرقيق (أبو اسحاق ابراهيم ت. 423هـ/1031م) : تاريخ افريقية و المغرب، تح. عبد الله العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، 1990.

19. القاضي النعمان (ابو حنيفة بن محمد ت. 363هـ/974م) : رسالة افتتاح الدعوة، تح. فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت.

. المجالس و المسايرات، تح. الحبيب الفقي و ابراهيم شبوح و محمد اليعلاوي، الجامعة التونسية و كلية الاداب و العلوم الانسانية، تونس، 1978.

20. القرطبي (أبو عمر النمري ت. 463هـ/1070م) : القصد و الامم في التعريف بأصول انساب العرب و العجم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1931.

21. المالكي (ابو بكر عبد الله ت. 474هـ/1081م) : رياض النفوس في علماء القيروان و تونس و زهادهم و نسائهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، تح. بشير البكوش و أحمد العمروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي للطباعة و النشر، بيروت، 1981.

22. المقريزي (تقي الدين أبو العباس ت. 845هـ/1442م) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح. جمال الدين الشيال، ج1، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1996.

23. النويري (شهاب الدين ت. 732هـ/1332م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. حسين نصار، 1983.

24. اليماني (محمد بن محمد كان حيا في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : سيرة الحاجب جعفر، نشر وايفا نوف، مجلس كلية الاداب، الجامعة المصرية، مج 4، ج1، القاهرة، 1936.

المراجع :

25. ابراهيم حسن (حسن) : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964.

26. ابراهيم حسن (علي) : تاريخ جوهر الصقلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1963.

27. ابن الحاج (سليمان) : ثورة أبي يزيد، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1997.

28. الدشراوي (فرحات): الخلافة الفاطمية بالمغرب (296هـ365م/975.909م) . التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة حمادي الساحلي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994.

29. الزركلي (خير الدين) : الإعلام، 11 جزء، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.

30. الصالح (صبحي) : النظم الإسلامية نشأتها و تطورها، دار العلم للملايين، بيروت، 1995.

31. عبد الكريم يوسف (جودت) : الاوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الاوسط خلال القرن الثالث و الرابع الهجري من 10.9م، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1992.

32. لومبار (موريس) :، الاسلام في مجده الاول، ترجمة و تعليق. اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1979.

33. ميتز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، ج2، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة، القاهرة، 1940.

المراجع الاجنبية:

34-.Charles, (A.J)., Histoire de l'Afrique du nord, payot, Paris, 1952.

35- Marsais, (G)., La berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, édition montagne, Paris, 1946.